الفصل العشرون

الرضـــا

مـن جنـات الإيـمان التي يـأوي إليهـا في الدنيـا المؤمنـون، وينعم بطيـب رياضها الصادقـون، الرضـا بالله وعن الله وبقضائـه وقدره، وذلكم الرضـا برهان صدق الإيمان ورسـوخ اليقـين، ومحبة الله والثقـة في حكمته وتدبـيره، وقد قيل: من لم يـرض بالقضاء فليـس لحمقه دواء، وعكس الرضا هو السـخط ذلك المرض الخبيـث الذي يملأ النفس حقدًا وحسـدًا، وانزعاجًا وقلقًا، وسـوء ظن بالله عَزَّوَجَلَّ، ويملأ القلب بالحسرات، والهم والغـم والحزن والشـتات ويؤدي به إلى قسـوة وغلظة، وظلمة وضغينـة، والذي يُخَلِّصُ القلب من كل ذلك وينقيه منه ويطهره، ويوجب له الطمأنينة والغنى، والأمن والقناعة، والسـكون والإنابـة، وبذل الوسـع والطاقـة في الطاعة هو الرضا، فهو بلسـم يمحو من القلب ظلمته وقلقه واضطرابه ويعيد إليه روح العافية ونور الإيمان وبرد الطمأنينة.

حقيقة الرضا

الرضا لغة: ضد السـخط، وهو ألا يكره العبد ما يُجْرِي به القضاء، والرضوان هو الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله عَزَّوَجَلَّ خُصَّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩][(١)].

والرضـا اصطلاحًا: هو سرور القلب وطمأنينة النفس بوقوع القدر ثقة في حكمة الـرب في تدبيره جَلَّجَلَالُهُ، قـال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: الرضا ارتفـاع الجزع في أي حكم كان وقيل: رفع الاختيار، وقيل: اسـتقبال الأحكام بالفرح، وقيل: سـكون القلب تحت مجاري الأحكام، والرضا ثلاثة أقسام: رضا بما قسمه الله وأعطاه ورضا بما قدَّره وقضاه، ورضا به بدلًا عن كل ما سواه[(٢)].

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١٤/ ٣٢٤).

(٢) «تهذيب المدارج» [٣٦٣-٣٦٤].

حكم الرضا

الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا، هذا فرض واجب بالاتفاق، أما الرضا بالقضاء وعند نزول البلاء، فهذا مستحب، نقل ابن القيم أن قول أكثر العلماء على استحبابه فقال: وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه على قولين، وكان شيخ الإسلام ابن تيميه قدس الله روحه يذهب إلى القول باستحبابه، قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم قال: وأما ما يروى من الأثر: «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًا سواي» فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

الرضا بالله ربًا

ذلك يعني أن لا يتخذ العبد ربًا سوى الله، وألا يسكن إلا إلى تدبيره، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، فلا يتحاكم المرء إلا إلى كتاب الله الذي أنزله الله تعالى مفصَّلًا كافيًا شافيًا، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، إن الرضا بالله ربًا من معانيه أن يرضى بحكم الله وأمره ونهيه، ومتى لم يرض بذلك لم يكن قد رضي بالله ربًا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأيضًا فالرضا به ربًا يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه، ومحبته، والصبر له وبه، والشكر على نعمه يتضمن رؤية كل ما منه نعمةً وإحسانًا وإن ساء عبده فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله، والرضا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا يتضمن شهادة أن محمدًا رسول الله، والرضا بالإسلام دينًا يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الثلاثة الدين كله[2].

---

(١) «تهذيب المدارج» [٣٦٣-٣٦٤]

(٢) المصدر السابق [٣٦٩].

أنواع الرضا

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرضا نوعان:

النوع الأول- الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ويتناول ما أباحه الله من غير تعدٍّ إلى المحظور كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وهذا الرضا واجب ولهذا ذم من تركه بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩].

والنوع الثاني- الرضا بالمصائب، كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء وليس بواجب وقد قيل إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك فإن الله لا يرضاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم، ويغضب عليهم، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك، وألا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه[(١)].

ومراد الشيخ في آخر كلامه ألا يرضى المؤمن بوجود كفر وفسوق وعصيان، بل ينبغي ويجب أن يسخطه ذلك ويغضبه غيرةً لله ولدينه، وبغضًا لما يبغضه الله وسخطًا

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٤٩-٥٥٠) بتصرف يسير ط العبيكان.

obeikandi.com

لما يسخطه سبحانه ولا يحبه ولا يرضاه، بل يسعى إلى تغيير هذه المنكرات وإزالة تلك الخباثات بكل سبيل وبكل طاقة.

ثمرات الرضا وفضائله

الفضائل الكريمة والثمرات المرضية والسكينة القلبية، وعلو الهمة والمسارعة إلى الأعمال والصبر عليها يجدها العبد في الرضا، وللرضا ثمرات كثيرة يستشعرها من عاش عليه، ويجدها في الآخرة من حققه وعمل به ومن ذلك ما يلي:

أولًا - ذوق طعم الإيمان:

للإيمان طعم عجيب، وبشاشة كريمة، وأريحية وانشراحٌ ولذة يجدها الراضون، وبقدر رضاهم توجد وتكون، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا**»(١).

وليس الرضا كلمة ترددها الألسنة، بل هو حقيقة توجد في المواقف العصيبة، ولا يمكن أن توجد إلا مِنْ مؤمن صادق، قد تغلغل الإيمان في كل ذرات قلبه، وسيطر اليقين والثقة على انفعالاته، فيظهر الكامن من المخبوء عند الشدائد والمحن، وأما من عاش دنياه على هواه، واستحكم منه طبعه وجهله فأنَّى له أن يرضى؟! وأنَّى له أن يذوق حلاوة الإيمان لاسيما في تلك المواقف التي تزل فيها أقدام؟! إن الرَّاضي لا يندم على فائت من الدنيا، ولا يتأسف على مفقود لم يُقَدَّرْ حصوله، ولله در من قال:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ... والدهر ذو دول والرزق مقسومُ
والخير أجمع فيما اختار خالقنا ... وفي اختيار سواه اللوم والشوم

---

(١) رواه مسلم برقم [٣٤].

ثانيًا- مغفرة الذنوب:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا؛ غفر له ذنبه**»(١)، ومغفرة الذنب معناها ستره والتجاوز عنه، وذلك يحصل بأن يرضى العبد بالله ربًا فلا يعبد غيره، ولا يقصد بالعبادة سواه، ولا يتوكل إلا عليه.

دع كل باب غير باب ربي ... وُلذ به عند كشف الكرب

ولير ض بالإسلام دينًا، فيعتقد أنه الحق وأن كل ما سواه من مذاهب وأفكار وملل كفر وباطل وضلال قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، والرضا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا هو الانقياد لسنته، والإذعان لأمره، وتصديق ما أخبر به، واتباع هديه مع اليقين بأنه خير الهدي، وأحسن السبيل وأنه لا طريق للجنة إلا به.

ثالثًا- جزاء الرضا رضا الرب عن العبد:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السُّخط**»(٢).

ورضوان الله على العبد أعظم ما يرجوه مؤمن صادق، وأجل ما يطلبه مؤمن أواب، بل إن رضوان الله على أهل الجنة أكبر وأفضل من الجنة، قالوا: لأن الجنة خَلْقُ الله، والرضوان صفة الله قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن

---

(١) رواه مسلم برقم [٣٨٦].

(٢) رواه الترمذي برقم [٢٣٩٦] وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم [١٢٢٠].

رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[(١)].

وفي ثمرات الرضا يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ ما يلي ملخصًا: وللرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضي إلى أعلى المنازل منها: تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

ومنها: أن يعلم أن رضاه عن ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده وجده أسرع شيءٍ إلى رضاه إذا ترضَّاه وتملَّقه.

ومنها: أن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، فالرضا يوجب له الطمأنينة، وبرد اليقين وسكونه وقراره.

ومنها: أن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته، فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد، وأصل مخاصمة إبليس لربه من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن حكم الرب تعالى ماض في عبده وقضاءَه عَدْلٌ فيه، كما في الحديث: «**ماضٍ فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك**»[(٢)]، ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٥٤٩]، ومسلم برقم [٢٨٢٩].

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٩١)، وغيره وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [١٩٩].

ومنهـا: أن الرضـا يفتح باب السـلامة فيجعل قلبه سـليمًا نقيًا مـن الغش والدغل والغل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم.

ومنها: أن السـخط يفتح عليه باب الشـك في الله وقضائـه وقدره وحكمته وعلمه فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه.

ومنهـا: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر، ملأ الله صـدره غنىً وأمنًا وقناعة، وفرَّغ قلبـه لمحبتـه والإنابة إليه والتوكل عليـه، ومن فاته حظه من الرضا امتـلأ قلبه بضد ذلك واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه، فالرضا يفرِّغ القلب لله، والسخط يفرِّغ القلب من الله.

ومنهـا: أن الرضا يثمر الشـكر الذي هـو من أعلى مقامات الإيـمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضدَّه وهو كفر النعمة، وربما أثمر له كفر المنعم.

ومنها: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة، فهناك يصطاده، لاسـيما إذا استحكم سـخطه فإنه يقول ما لا يرضي الرب، ويفعل ما لا يرضيه وينوي ما لا يرضيـه؛ ولهـذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موت إبراهيم: «**يحزن القلب وتدمع العين ولا نقـول إلا مـا يرضي الـرب**»[(١)]، فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السـخط عـلى القـدر، فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنـه لا يقول في مثل هذا المقام-الذي يسـخط أكثر الناس فيتكلمون بما لا يرضي الله ويفعلون ما لا يرضيه- إلا ما يرضي ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومنهـا: أن الرضـا يُخْرِج الهـوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمـراد ربه منه، أعني المـراد الـذي يحبه ربه ويرضاه فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبدًا، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا فهو للغالب عليه منها[(٢)].

---

(١) رواه البخاري برقم [١٣٠٣]، ومسلم برقم [٢٣١٥].

(٢) باختصار من «تهذيب المدارج» ص [٣٧٦-٣٧٨]، وقد ذكر ابن القيم وجوهًا أخرى فارجع إليها إن شئت.

أمور تستجلب رضا الله

كل طاعة وقربة تستجلب رضا الله عَزَّوَجَلَّ عن عبده، ومن أجلِّ ما يستجلب رضاه عبادته وحده وعدم الشرك به جَلَّجَلَالُهُ، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

ومن ذلك: كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه من أرضى الأعمال عند الله سبحانه، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيركم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**ذكر الله تعالى**»[(١)].

ومن ذلك: بر الوالدين، ففي سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**رضا الرب في رضا الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالدين**»[(٢)].

ومن ذلك: حمد الله عَزَّوَجَلَّ، روى مسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[(٣)]، فإذا حمد الله تعالى بعد الشبع والأكلة يكون جزاؤه الرضا فكيف إذا كان حمد الله عَزَّوَجَلَّ بعدما هو أعظم وأنفع للعبد من ذلك في أخراه قبل دنياه؟!.

ومن ذلك: استعمال السنن، والاهتداء بهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣٣٧٧]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم [٣٠٥٧].

(٢) رواه الترمذي برقم [١٩٦٢]، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» [١٨٩٩].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٧٣٤].

(٤) رواه النسائي (١/ ١٠)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» رقم [٥].

obeikandi.com

ومن ذلك عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والاعتصام به، وعدم التفرق والاختلاف، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(١).

هل أنت راضٍ؟!

إن عين البصيرة لدى المؤمن الصادق تنظر إلى النعم فتذل المؤمن نعم الله عليه، وتملأ صدره رضا وإن أصابه نوع بلاء، أو ليس المرء غارقًا في نعم من الله لا يستطيع عدها ولا إحصاءها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلماذا ينسى النعم ولا يذكر إلا البلاء، لماذا ينسى العافية وطول السلامة إن أصيب بكرب عابر؟! قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال: الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى النعم(٢)، إن الله لا يبتلي ليعذب وإنما لينقي ويهذب، وكم في البلاء من نعم، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال بعض السلف: إني لتكون لي حاجة إلى الله فأسأله إياها فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته والتذلل له والتملق بين يديه ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها وتدوم لي تلك الحال.

وقال آخر: ارض عن الله في جميع أمورك فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك ولا أماتك إلا ليحييك.

إن من أكثر الظواهر انتشارًا في هذه الأيام ظاهرة الشجب والشكوى، والاعتراض والضجر، والقلق والسخط، فقلما تجالس إنسانًا فتجده راضيًا بالمقسوم شاكرًا لنعمة

(١) رواه مسلم برقم [١٧١٥]، ورواه البخاري بمعناه برقم [٢٤٠٨].

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٥).

الله عليه، وهذا نذير خطر ودليل على خراب القلب، وخلوِّه من معاني التسليم للقضاء والرضا به، نعم تجد هذا يشكو من قلة الرزق وسوء الحال، وآخر يشكو ويتضجر من مرض أو دَيْنٍ، كثير من الناس ليس في ألسنتهم إلا الشكوى والسخط، وينسى أحدهم أو يتناسى أنه لا يقع أمرٌ في هذا الكون إلا بقدر الله، ولا يكون بلاء قط إلا بإذنه جَلَّجَلَالُهُ، ولمثل هذا المهموم المغموم الساخط نقول: أترضى أن تمتلك ملك قارون ثم تموت على الكفر بالله؟! أترضى أن تعيش مستريحًا في الدنيا وتكون في الآخرة من أهل النار؟! أترضى أن تحيا صحيحًا سليمًا وتكون عاصيًا فاجرًا تستعين بالصحة على معاصي الله؟! لا يغرنك ما فيه أهل الكفر والفساد من نعيم عاجل فمآله زوال، وعاقبته حسرات وندمات، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨].

فيا عبد الله، إذا ابتليت فتذكر من هو أشد منك بلاء وأعظم منك كربًا حتى يخف عليك مصابك وترضى بما قدَّره لك ربك تعالى، إذا انكسرت رجلك فتذكر من قطعت رجلاه أو شُلَّت، إذا أصبت بآلام أقلقت منامك فتذكر من هم في أشد من ذلك منذ عشرات السنين[1]، تذكر كيف أعطاك الله عقلًا وقد أصيب أناس بالجنون، وكيف أعطاك أولادًا وابتلى آخرين بالعقم، وأعطاك بيتًا وهناك من يعيش في العراء، وأنعم عليك بصحة وقد حرمها أقوام، أترضى أن تكون أعمى أو أشل أو مجنون وتعيش في الغنى والأموال؟! هل أنت راضٍ؟! ولماذا لا ترضى وربك قد عافاك وأنعم عليك

(١) من طريف ما يذكر أن مريضًا بالشلل الرباعي زار مريضًا آخر بنفس المرض، فتحدثا فقال أحدهما للآخر: الحمد لله نحن في نعم كثيرة فقال الآخر: وأي نعم ونحن لا يتحرك فينا إلا الرأس؟ فقال: إن هناك من هو مصاب بمثل مرضنا لكنه أيضًا لا يسمع ولا يتكلم وقد نظر أهله يومًا فوجدوه ملوثًا بالدماء فنظروا فإذا بفأر قد أكل إصبعين من جسده وهو لا يستطيع أن يصرخ أو يستغيث.

وهداك؟! لماذا لا ترضى وأنت تبيت في بيتك مطمئنًا هادئًا؟! لماذا لا ترضى وأنت مسلم تحب الله وتعبده؟! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» وفي رواية للبخاري: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من أسفل منه**»(١).

وعن عبيد الله بن محصن الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(٢).

أي أخي، ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأسعد الناس وأشد الناس طمأنينة وسكينة، وكل الناس مبتلى فكن أنت خير الناس عند البلاء وأَرِ الله من نفسك خيرًا، واثبت ثبتك الله، وارض رضَّاك الله بما آتاك.

من ذا الذي قد نال راحة فكره ... في عسره من عمره أو يسره
يلقى الغني لحفظه ما قد حوى ... أضعاف ما يلقى الفقير لفقره
سن البلاء بكل جمع فرقة ... يرمى بها في يومه أو شهره
والجن مثل الإنس يجري فيهم ... حكم القضاء حلوه أو مره
أو ما ترى الرجل العزيز بعزه ... رهن الهموم على جلالة قدره
فيسره خير وفي أعقابه ... شرٌّ تضيق به جوانب صدره
وأخو التجارة لاهثٌ متفكِّر ... مما يلاقي في خسارة سعره
وأبو العيال أبو الهموم وحسرة ... الرجل الوحيد كمينة في صدره
ولرب طالب راحة في نومه ... جاءته أحلام فهام بأمره
والطفل من بطن أمه يخرج ... إلى غصص الفطام تروعه في صغره

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٤٩٠]، ومسلم برقم [٢٩٦٣].

(٢) رواه الترمذي برقم [٢٣٤٦]، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم [٢٣١٨].

obeikandl.com

والوحش يأتيه الردى في بره ... والحوت يأتي حتفه في بحره
ولربما تأتي السباع لميت ... فاستخرجته من قرارة قبره
تالله لو عاش الفتى في دهره ... ألفًا من الأعوام مالك أمره
متلذذًا معهم بكل لذيذة ... متنعمًا بالعيش مدة عمره
لا يعتريه النقص في أحواله ... كلا ولا تجري الهموم بفكره
ما كان ذلك كله في أن يفي ... بمبيت أول ليلة في قبره
كيف الفعال يا أخي فيما ترى ... صبرًا على حلو القضاء ومره

أي أخي، حقق العبودية وكن لله عبدًا حقًا، واعلم أن الله لن يضيعك، أبدًا لن يخذلك! وأبدًا لن يتخلى عنك! بل سيكون معك، يحفظك وينصرك ويؤيدك ويسددك، وإذا كان الله معك فلا تخف ولا تحزن، بل اطمئن كل الاطمئنان، واهنأ بمعية الرحمن، وارض بالله بدلًا عن كل من سواه، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

أي أخي، عليك أن تقنع بما قُسم لك من مال وجسم وولد وسكن ووظيفة، فتلك نِعم لابد أن تشكرها، فإذا شكرتها زادك الله منها، والشكر لا يكون إلا بعد الرضا، وإلا فالساخط لا يشكر، قال تعالى: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، إن أكثر العلماء كانوا فقراء ليس لديهم مساكن فخمة، ولا مراكب فارهة ولا أموالًا كثيرة، ومع ذلك آثروا الحياة، وأسعدوا أنفسهم ومن حولهم؛ لأنهم وجَّهوا ما آتاهم الله من خير في سبيله الصحيح، ولأنهم آثروا السهر والرحلة والتعب والمشقة ورضوا بذلك واستطابوه على الرفاهية والراحة؛ فبورك لهم في أعمالهم وأعمارهم وعاشوا حياتهم راضين سعداء، فإن كنت تريد السعادة؛ فارض بما أوتيت، وابذل وسعك في إصلاح نفسك وحالك بالعلم والتعبد والعمل، فإن قيمتك ما تحسنه، وقدرك بقدر عملك الصالح ونفعك للخلق فلا تأس بعد ذلك على ما فاتك من مال أو جمال أو عَرَض من أعراض الدنيا.

فلا تهلك على ما فات وجدًا ولا تفردك بالأسف الهموم

وقد قيل:

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعًا ولا أبيت على ما فات حسرانًا

جنة الرضا

نعم إنها جنة ينعم فيها أهل الإيمان ويهنأ فيها أصحاب اليقين، وأول من نبدأ بالحديث عنه هو قدوة الخلق وسيد الموقنين رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ في أفعاله، وأن يدري من أين ينشأ الرضا فليتفكر في أحوال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه حكيمًا لا يصنع شيئًا عبثًا؛ فسلَّم تسليم مملوك لحكيم؛ فكانت العجائب تجري عليه، ولا يوجد منه تغيُّر ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال: لو كان كذا، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبال لعواصف الرياح.

هذا سيد الرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفر من مكان إلى مكان، وهم يُدْمون عَقِبه، ووضع السلا على ظهره وهو ساكت ساكن، ويخرج في كل موسم يقول: «**من يؤويني، من ينصرني؟**»، ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر، ولم يوجد من الطبع تأفف ولا من الباطن اعتراض، إذ لو كان غيره لقال: يارب أنت مالك الخلق، وقادر على النصر، فَلِمَ أُذَلُّ؟ كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم صلح الحديبية: ألسنا على الحق؟ فَلِمَ نعط الدَّنيَّة في ديننا؟! ولما قال هذا، قال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني عبد الله ولن يضيعني**»[(١)].

فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما، فقوله «**إني عبد الله**»: إقرار بالملك، وكأنه قال: أنا لمالك يملكني يفعل بي ما يشاء، وقوله «**لن يضيعني**»: بيان حكمته، وأنه لا يفعل شيئًا عبثًا، ثم يبتلي بالجوع فيشد الحجر، ولله خزائن السماوات والأرض، ويُقتل

(١) رواه البخاري برقم [٣١٨٢]، ومسلم برقم [١٧٨٥] بلفظ قريب.

أصحابه ويشج وجهه وتكسر رباعيته ويمثل بعمه وهو ساكت، ثم يرزق ابنًا ويسلب منه، فيتعلل بالحسن والحسين، فيخبر بما سيجري عليهما، ويسكن بالطبع إلى عائشة فينغص عيشه بقذفها، ويبالغ في إظهار المعجزات فيقام في وجهه مسيلمة والعنسي وابن صياد، ويقيم ناموس الأمانة والصدق فيقال: كذابٌ ساحِرٌ، ثم يوعِكُه المرض كما يوعِكُ رجلين وهو ساكت ساكن، فإن أخبر بحاله فيُعلِّم الصبر، هذا شيءٌ ما قَدَرَ على الصبر عليه نبي قبله، ولو ابتُليت به الملائكة ما صبرت.

وهذا والله فعل نبي عرف الوجود والموجد فماتت أغراضه وسكنت اعتراضاته فصار هواه فيما يجري[(١)].

وهذا نبي الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يخبره خليل الرحمن إبراهيم برؤيا مؤدَّاها وتأويلها أن يُذبحَ إسماعيلُ، ورؤيا الأنبياء وحي، فأخبر الأب ولده بما رأى، فما كان منه إلا التسليم والإذعان والرضا، قال الله جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢].

وهذا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قدم مكة وكان قد كف بصره في آخر حياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاءه الناس يسألونه الدعاء ويطلبون منه أن يدعو لهم وقد كان سعد مستجاب الدعوة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم استجب لسعدٍ إذا دعاك**»[(٢)]، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرَّفت عليه فعرفني يقول: قلت: يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك؟ فتبسَّم وقال: يا بني قضاء الله أحب إلى من بصري.

---

(١) «صيد الخاطر» باختصار وتصرف يسير [٣١٠-٣١٢] ط دار الحديث.

(٢) رواه الترمذي [٣٧٥١]، وصححه شيخنا العدوي في «فضائل الصحابة» ص [١٥٩٠]، الشاهد أن سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاءه الناس يطلبون الدعاء وكان يدعو لهم ويستجاب له.

وهذا عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرض بالبواسير قرابة الثلاثين سنة، وسلمت الملائكة عليه وهو في فراش المرض، فلما اكتوى تركت الملائكة السلام عليه ولما ترك الكيَّ[(١)] عادت الملائكة للسلام عليه، فقد روى مسلم عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لمطرف بن عبد الله: «وأنه كان يُسلَّم عليَّ- يعني الملائكة- قال: فلما اكتويت أُمْسِكَ ذلك، فلما تركته عاد إليَّ»[(٢)]، قال له مطرِّف: ما يمنعني من عيادتك إلا ما أرى من حالك قال: فلا تفعل فإن أحبه إليَّ أحبه إلى الله[(٣)]. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الله إذا قضى قضاء أحبَّ أن يُرْضَى به من قِبَلِ العباد.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك.

وقال عمر بن عبد العزيز: أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر[(٤)].

ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت فانقطعت إصبعها فضحكت، فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها، إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام من ملاحظة المبتلى ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء وتلذذها بالشكر له والرضا عنه ومقالة ما جاء من قبله بالحمد والشكر[(٥)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الراضي واقف مع اختيار الله له، معرض عن اختياره لنفسه، وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ومعرفته بنفسه، وقد اجتمع وُهَيْب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط، فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم

---

(١) **الكي**: هو طريق للعلاج، ويكون بالنار، وقد جاء النهي عنه في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بتصرف من «لسان العرب» لابن منظور (٧/ ٧٧٤) ط دار الحديث.

(٢) رواه مسلم برقم [١٢٢٦].

(٣) «السير» للذهبي (٤/ ١١٥) ط التوفيقية.

(٤) «جامع العلوم والحكم».

(٥) «تهذيب المدارج» ص[٣٦٠].

وأما اليوم فودِدْت أني ميت، فقال له يوسف بن أسباط: ولِمَ؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة، فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، فقال الثوري: ولِمَ لا تكره الموت؟ قال: لَعَلِّي أصادف يومًا أتوب فيه، وأعمل صالحًا، فقيل لوهيب: أي شيءٍ تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أَحَبُّ ذلك إليَّ أحبه إلى الله، فقبل الثوري بين عينيه، وقال: رَوْحَانِيَّةٌ ورب الكعبة، فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت، ووقف مع اختيار الله له منهما، وقد كان لوُهَيْبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المقام العالي من الرضا وغيره[١].

وهذا رجل من أهل العلم من أصحاب عبد الله بن مسعود، وهو سويد بن مثعبة، دخل عليه بعض أهله في مرضه الشديد الطويل يقول له: نفسي فداؤك أما نطعمك؟ أما نسقيك؟ فأجاب بصوت ضعيف طالت الضَّجعة، والله ما يسرني أن الله نقصني منه قدر قلامة.

وعن إبراهيم النخعي أن أم الأسود بن يزيد قعدت من رجليها فجزعت ابنة لها فقالت: لا تجزعي، اللهم إن كان خيرًا فزد[٢].

وقال الحسن بن على البصري: أصبح أعرابي وقد ماتت له أباعر[٣] كثيرة فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إحن

ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئًا قضاه الله لم يكن[١]

وقال أبو عمرو الكِنْدِيُّ: أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري نحوًا من أربع مائة جاموس، قال فاستركبني فركبت معه أنا وابن له، قال: فلقينا عبيده الذين كانوا مع الجواميس معهم عصيهم قالوا يا مولانا ذهبت الجواميس، فقال: وأنتم أيضًا فاذهبوا معها فأنتم أحرار لوجه الله فقال له ابنه: يا أَبَتِ أفقرتنا، فقال: اسكت، أي بني: إن ربي عَزَّوَجَلَّ اختبرني فأحببت أن أزيده[٤].

(١) «تهذيب المدارج» ص[٣٧٩].

(٢) «الرضا عن الله» لابن أبي الدنيا [٩٨-٨٨] ط الدار السلفية بومباي.

(٣) جمع بعير، وهو واحد الإبل.

(٤) المصدر السابق [٥٠]، [٥٥].

وعن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء، ويحمل لهم خِبَاءهم، والكلب يحرسهم قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا لذهاب الديك، وكان الرجل صالحًا فقال: عسى أن يكون خيرًا ثم مكثوا ما شاء الله، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله؛ فحزنوا لذهاب الحمار، فقال الرجل الصالح: عسى أن يكون خيرًا ثم مكثوا بعد ذلك ما شاء الله، ثم أصيب الكلب فقال الرجل الصالح: عسى أن يكون خيرًا ثم مكثوا بعد ذلك ما شاء الله فأصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبِيَ من حولهم وبقوا هم قال: وإنما أخذوا أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم[1]، فكان هلاك هذه الأشياء خيرًا لهم حيث حُفِظُوا من عدوهم.

وهذا ملك من الملوك أصيب في قدمه، فانقطعت له أصابع، فدخل عليه وزير صالح، وعالم فاضل يعوده فقال للملك: لعله خير إن شاء الله، فغضب الملك وقال: تقطع أصابعي وتقول لعله خير، اذهبوا به إلى السجن فقال الرجل: لعله خير إن شاء الله، ومرت الأيام وخرج الملك مع مجموعة من حاشيته في رحلة صيد برية، فقبض عليهم مجموعة من عُبَّاد الأصنام، ولما أُخْبِرُوا أن ذلك الرجل ملك؛ فرحوا وقالوا: نذبحه قُربانًا لآلهتنا، فجزع الملك جدًا، ولما هَمُّوا بذبحه فتشوا فوجدوا أصابعه قد قُطِعَتْ، فقالوا: لا نقرب لآلهتنا رجلًا معيبًا ناقص الأصابع فتركوه ولما نجا منهم وعاد إلى قصره أمر بإخراج ذلك العالم من السجن؛ لأنه تذكر قوله في قطع الأصابع، فلما جيء به قال: صدقت، قلت: لعل في قطع أصابعك خير، وقد كان فيه الخير فعلًا وحدَّثه بما كان، ثم قال الملك: ولكنك حينما أمرت بوضعك في السجن قلت لعله خير إن شاء الله، فأي خير في ذلك؟ فقال: لو لم أدخل السجن لكنت معك في هذه الرحلة ولو كانت لذبحت أنا مكانك فقال: صدقت.

---

(١) «عيون الحكايات» [١٤٠] ط فياض، و«الرضا عن الله» [٦١-٦٢] رقم [٢٨].

ونظر رجل إلى قرحة في رِجل محمد بن واسع فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة فقال: إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني[(١)].

ومرض بعض الصالحين فقيل له: ما يؤلمك؟ فقال:

تموت النفوس بأوصابها ... ولم يدر عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي ... أذاها إلى غير أحبابها

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل للحسين بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن أبا ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، فقال: رحم الله أباذر أما أنا فأقول: من اتَّكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له.

ويقول: فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده، رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا ومستراح العارفين، وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين، ومن أعظم أسباب حصول الرضا أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت وإن تركتني عبدت وإن دعوتني أجبت، وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلبُ حقيقةَ العلم أدَّاه إلى الرضا[(٢)].

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٣٦٥).

(٢) «تهذيب المدارج» ص[٣٦٦-٣٦٥].

شروط يصح بها الرضا

الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ يصح بثلاثة شروط:

الأول- استواء النعمة والبلية عند العبد؛ لأنه يشاهد حسن اختيار الله له.

والثاني- سقوط الخصومة عند الخلق، إلا فيما كان حقًا لله ورسوله، فالراضي لا يخاصم ولا يعاتب إلا فيما كان حقًا لله ورسوله وهذه كانت حال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ما كان يغضب لنفسه قط، فإذا انتُهِكَتْ مَحارِمُ الله لم يقم لغضبه شيءٌ حتى ينتقم لله عَزَّوَجَلَّ، فالمخاصمة لحظ النفس تطفئ نور الرضا وتُذْهِبُ بهجته وتُكَدِّر صفوه.

والثالث- الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح عليهم؛ وذلك لأن المسألة فيها ضرب من الخصومة والمنازعة والمحاربة والرجوع عن مالك الضر والنفع إلى من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلا بربه، وفيه الغيبة عن المعطي المانع، والإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافًا، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة:٢٧٣][(١)]، فالراضي تستوي عنده النعمة والبلية لأنه ناظر ببصيرته إلى ما وراء كل منهما، فكم في البلية من عطية، وكم في النعمة من فتنة، والراضي يرضى باختيار الله لا باختيار نفسه ثم هو لا يخاصم ولا يعاتب أحدًا إلا ما كان في حقوق الله ورسوله لأنه يعلم أن الله قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة:٢٣٧]، وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشُّورَىٰ:٤٣]، وكذلك هو لا يتعرض للخلق بالسؤال وطلب الحاجات؛ لأن غناه كامل بالله وقلبه مليء بالثقة فيما عنده؛ وأنه لا يملك النفع والضر والإعطاء والمنع والإعزاز والإذلال والنصرة والخذلان إلا من بيده ملكوت كل شيءٍ وإليه يرجع كل شيءٍ وهو رب كل شيءٍ سبحانه وبحمده.

---

(١) «المدارج» (٢/ ٢٣٠-٢٣١) ط دار الكتاب العربي.

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئًا، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله فقال: يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حَقَّه الذي قسمه الله له في هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تُوفي[(١)].

وعن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكنا حديثو عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلامَ نبايعك؟ قال «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا والصلوات الخمس وتطيعوا**» وأسر كلمة خفية «**ولا تسألوا الناس شيئًا**» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه[(٢)].

هل البكاء والحزن والتألم ينافي الرضا؟

الجواب: البكاء على الميت على وجه الرحمة والحزن لذلك لا ينافي الرضا، وقد بكى سيد الخلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الصحيحين حينما أرسلت إليه ابنته أن يحضر ولدها وهو في احتضاره يقول أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرفع إليَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبي فأقعده في حجره ونفسه تقعقع، ففاضت عيناه، فقال سعدٌ: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده**» وفي رواية «**في قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله**

---

(١) رواه البخاري برقم [١٤٧٢]، ومسلم برقم [١٠٣٥].

(٢) رواه مسلم برقم [١٤٧٤].

من عباده الرحماء»[(١)]، قلت: يفضل وضع هذه القصة قبل الأخرى، والله أعلم، ولما مات ابنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بكى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فجعلت عينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة**» ثم أتبعها بأخرى فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا يُعْرَفُ معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بكى على الميت وقال: «**إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»؛ فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه عليٌّ ضحك، وقال: رأيت أن الله قد قضى، فأحببت أن أرضى بما قضى الله به، حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا أكمل كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البَلَد: ١٧]، فذكر سبحانه التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة[(٣)]، إن الفضيل بن عياض غلب عليه جانب دون الآخر كان موقفه نتاجًا للرضا وحده، وأما في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد اكتمل عنده الجانبان، الرحمة والرضا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وليس من شرط الرضا ألا يحس بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر، وإلا كيف يجتمع الرضا والكراهية وهما ضَدَّان؟! والصواب أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألُّمِ وكراهة النفس له لا ينافي

---

(١) رواه البخاري برقم [١٢٨٤]، ومسلم برقم [٩٢٣].

(٢) رواه البخاري برقم [١٣٠٣]، ومسلم برقم [٢٣١٥].

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٩٧-١٩٨) ط العبيكان.

الرضا كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها[١].

ما ينافي الرضا

ينافي الرضا الضجر والسخط والشكوى لغير الله وكثرة الغيبة والحديث عن الخلق على وجه التنقص والازدراء، والعجلة والتباغض، ومن أخطر ما ينقض الرضا مرض الحسد؛ فالحاسد إنما دفعه إلى الحسد عدم رضاه وسخطه على النعم التي أنعم الله بها على عباده، والحاسد معترض على أقدار الله تعالى؛ فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنعم على عباده بما شاء، وهو الذي قسم بينهم الأرزاق، فمن نال منصبًا أو حَصَّل مالًا أو حصَّل علمًا، أو كان جميلًا أو كان ذكيًا عاقلًا فكل ذلك بقدر الله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وكل شيء بقدر حتى العجز والكيس**»[٢]، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليسلم لقدر الله، وليترك الحسد، وليدافعه عن نفسه؛ لأنه بذلك الحسد يكون متشبهًا بالمشركين والمنافقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، والحاسد بحسده متشبه بإبليس الذي كفر بالله حسدًا لآدم، وأبى أن يسجد له سجود التحية الذي أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، والحاسد يزداد حسرة كلما تجددت للمحسود نعمة ويظل معذبًا بذلك، ولو كان عاقلًا لسأل الله من فضله، فإن الذي أعطاه قادر على أن يعطيك، إن الذي أنعم عليه قادر على أن ينعم عليك بما أنعم عليه وأكثر، لكن سل الله من فضله، وخذ بالأسباب، واعمل حتى يعطيك الله ما تتمنى.

---

(١) «تهذيب المدارج» [٣٦٥-٣٦٦].

(٢) رواه مسلم برقم [٦٥٥]، والكيس هو النشاط والحذق في الأمور.

واعلم أن الحاسد من أبغض الناس إلى الناس، ثم إنه مُعَرَّض لنزول المصائب والبلايا عليه بسبب فعله لتلك الكبيرة -أعني الحسد- قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

ولله در القائل:

ما مسني قدرٌ بكره أو رضا ... إلا اهتديت به إليك طريقًا

أَمْضِ القضاءَ على الرضا مني به ... إني وجدتك في البلاء رفيقًا

ولله در من قال:

إذا ارتحل الكرام إليك يومًا ... ليلتمسوك حالًا بعد حال

فإن رحالنا حطت لترضى ... بحلمك عن حلول وارتحال

أنخنا في فنائك يا إلهي ... إليك معرضين بلا اعتلال

فسُسْنا كيف شئت ولا تكلنا ... إلى تدبيرنا يا ذا الجلال

سبيل الرضا

- من أهم السبل التي تستجلب للعبد الرضا هو الإيمان -لاسيما الإيمان بالقدر- حينما يستيقن العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن اطمأن قلبه بهذا الإيمان حصل له الرضا ولابد، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].

- ومن ذلك النظر في حال أهل البلاء إذا تأمل المرء في أهل المرض الذين يَئِنُّ أحدهم طوال الليل، ويتلوى آخر على سريره من الألم، وثالث أصيب بسرطان، ورابع ببتر يده أو ساقه، وخامس أصيب بورم أقلق حياته إلى غير ذلك، حينما ينظر المرء إلى هذا يعرف نعمة الصحة، وإذا تأمل في حال المسجونين عرف نعمة الحرية، وإذا نظر في حال المطاردين عرف نعمة الأمن والأمان ومن تَعَزَّى بأهل البلاء هان عليه ما أصابه، وخَفَّ عليه ألمه ومُصَابَهُ ورضيَ بما قسمه الله ورضيَ بما قدره الله وقضاه.

– ومـن ذلك ذكر غنـى الرب وجوده وعزته في قضائه، فـلا رَادَّ لما قضاه، ولا دافع لما أراده جَلَّجَلَالُهُ، وفضل الله لا يحصل إلا بطاعته ودعائه، فمن تقرب إليه كان أهلًا لفضله جديرًا بالمزيد من النعم والعطايا، وربنا هو الغني الكريم ذو الفضل العظيم سبحانه وبحمده.

– ومن ذلك أن ينظر العبد إلى من هو أقل منه فإن ذلك جدير بألَّا يزدري نعمة الله عليه، وحقيق بأن يستشـعر النعمة، ويرضى بما قسـم الله له، وكم من إنسان حُرم من نعم أُوتِيتَهَا، وكم من نعمة فُضِّلْتَ أنت بها على من سـواك، فارض بالنعمة واشـكرها، يزدك ربك منها.

– ومن ذلك شـغل الأوقات بالطاعات، وشغل القلب والعقل بالعلم، فإن أخطر ما يدفع إلى السخط الفراغ، وأكثر ما تزيغ بسببه الأذهان وتضل بسببه العقول هو ذلكم الفراغ، لذلـك اطرده بالعمـل، أزحه عن عقلك وقلبك بالعلم والتعلم والتعليم والتفقه، أنجز كل يوم عملًا جديدًا، وكن عالي الهمة نشيط النفس دؤوب الحركة كثير الذكر والتعبد.

– ومن ذلك الدعاء الدائم والتزام الطاعات ومجالسة المتقين ومطالعة سير السلف الصالحين، فإن فيها ذكرى وقدوة، وأنيسًا صالحًا، وباعثًا قويًا على الرضا.

– ومـن ذلك معرفة فضائل الرضا وثمراته، وخطورة السـخط وعاقبته الأليمة في الدنيـا والآخـرة، فمـن رضي بالله أرضاه الله ورضَّاه، ومن سـخط فليس له إلا السُّـخْط والعقاب والعذاب، فكن راضيًا تكن مرضيًا، وسَـلِّم لربك تَسْـلَم، وارض بما قسم لك ربك، واستغن عن الناس بالله، اللهم ربنا ارزقنا الشكر لنعمائك والرضا بقضائك، أنت ربنا وحسبنا، ومن كنت ربه وحسبه فقد كفيته، إنك نعم المولى ونعم النصير.

❁ ❁ ❁

obeikandi.com